

تمرد الفرق المعادية في التاريخ الإسلامي

د/ بشار قويدر

قسم التاريخ - جامعة الجزائر 2

1- تمرد الإسماعيلية والقرامطة:

- حركة الإسماعيلية:

من الحركات التي كان لها تأثير في التاريخ الإسلامي المعادي للخلافة العباسية هي "فرقة الإسماعيلية"، ويعود تاريخ حضورها على المسرح السياسي إلى أواخر عهد الخلافة الأموية، ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين عملوا على نشر المذهب وترأسوا الدعوة "ميمون القداح"⁽¹⁾ الذي وضع أسس المذهب، ممهدا السبيل إلى ابنه "عبد الله"⁽²⁾.

الراجع أن الدعوة أخذت في الحركة الجدية ضد الإدارة العباسية عقب وفاة الحسن العسكري⁽³⁾ في حدود سنة (260هـ/874م)، على ما يذكر المؤرخ "ابن الأثير"⁽⁴⁾، وقد اتخذت الدعوة الإسماعيلية من المناطق المضطربة مجالا خصبا لها وذلك لاستغلال تدمير بعض المواطنين من الإدارة العباسية.

لكن "ابن الأثير" لا يتعرض إلى تاريخ الإسماعيلية ولا إلى نشاطها السري، وإنما اجتهد في ذكر حركة القرامطة، حين تناول أحداث سنة (278هـ/891م).

- حركة القرامطة:

ويبدو أن معلوماته عن هذا الموضوع قليلة لا تكاد تتجاوز بعض الروايات العادية عن بداية نشاط الحركة في "الكوفة" وعن بعض مميزات شخصية زعيم الحركة وهو "قرمط" ومنه استمدت اسمها⁽⁵⁾.

ولا يخفي "ابن الأثير" العلاقة بين القرامطة والشيعة، ولكن دون توضيح أو تركيز، بل مجرد حديث عابر "ثم أعلمهم أنه يدعوا إلى إمام من آل بيت الرسول فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير"⁽⁶⁾.

وفي أخبار القرامطة يجمع "ابن الأثير" بين الغث والسمين وبين الحقيقة والخرافة حيث يتناول موضوع حياة "قرمط"، وموضوع المبادئ التي أخذ يدعو سكان الكوفة إليها⁽⁷⁾.

يستعرض "ابن الأثير" دون مناقشة آراء القرامطة الدينية، فيتحدث عن البدع التي نادوا بها وعن البدع التي نسبوها إلى الشريعة الإسلامية، وذلك دون أن يبدي اعتراضاً رغم وضوح كفرها وخروجها عن مبادئ الإسلام.

ورغم ثقافة "ابن الأثير" الدينية واطلاعه الواسع على أصول الشريعة الإسلامية إلا أنه لم يناقش الادعاءات التي أخذ القرامطة يروجون لها في ذلك الوقت، ولم يبدي أي رأي في الموضوع رغم وضوح مخالفته لأموال الدين الإسلامي.

ويورد "ابن الأثير" نصاً في غاية الأهمية عن محاولة القرامطة عقد تحالف مع زعيم حركة "الزنج"⁽⁸⁾، وهو مسعى لو قدر له النجاح لكان مصير الخلافة العباسية قد صار بين يدي هؤلاء المعارضين.

ويبدو أن فشل الزعيمين المعارضين صاحب "الزنج" وزعيم "القرامطة" في تحقيق الائتلاف بينهما قد أعطى فرصة للخلافة العباسية في بغداد للقضاء على حركة الزنج، والتفرغ بعد ذلك لحركة القرامطة.

واتضح ذلك في عهد الخليفة العباسي "المعتضد"⁽⁹⁾، الذي بيّن "ابن الأثير" اجتهاده في التصدي لحركة القرامطة جنوبي العراق، ذلك أنها أخذت تشكل قوتهم في "البحرين" تحت زعامة رجل منهم يدعى "أبو سعيد الجنابي" الذي وصل بحركة القرامطة إلى حدود بعيدة، في الاتساع وفي الإرهاب أيضاً.

بيّن "ابن الأثير" كيف استطاع "الجنابي" كسب الأتباع وبسط هيمنته الفعلية على "هجر" و"الإحساء"، و"القطيف" وسائر "البحرين"، وكاد ينشئ دولة في جنوبي العراق، واستطاع أن يحدث الهزائم المنكرة بالجيش العباسي⁽¹⁰⁾.

ولعل مرد ذلك كما يشير "ابن الأثير" إلى استطاعته تنظيم القبائل العربية شرقي الجزيرة العربية حتى صاروا يشكلون جيشاً منشقاً، ثم تمكن بعد ذلك من تأسيس قاعدة عسكرية في الهجر والإحساء ظلت تكسر هجمات الجيش العباسي المبعوث من بغداد في كل مرة⁽¹¹⁾.

ولكي يتجنب القرامطة ضغط الإدارة العباسية وإمكانية إيقاعهم في الحصار في جنوبي العراق والبحرين، فإنهم اجتهدوا في الوصول إلى بلاد الشام أملاً في الحصول على التنسيق مع المعارضين هناك، والعمل على تشتيت القوة العباسية والتخفيف من ضغوطاتها المتواصلة أيضاً.

لقد اتضح ذلك في حدود سنة 289هـ/902م هـ حيث ظهر أحد زعماء القرامطة في بلاد الشام يدعو الناس إلى الانضمام إلى صفوفه، وأفلح في إقناع بعض من جموع الأعراب الناقمين، فلقبوه بـ "الشيخ" وادعى أنه من نسل آل علي⁽¹²⁾.

والظاهر أن بعض الأعراب في الشام لم تكن تربطهم بالخلافة العباسية أية رابطة لذلك فإنهم لم يترددوا في القبول بدعوة "زكرويه" زعيم القرامطة الذي تمكن دون عناء من كسب بدو بلاد الشام، مما سيؤهله للسيطرة على "دمشق" لاحقاً.

والدليل على ذلك ما أورده "ابن الأثير" حين تناول موضوع أحداث سنة (289هـ/902م)، حيث تحدث عن نشاط القرامطة في جمع الأتباع واستعدادهم لتوجيه الضربات الموجهة لممثلي الإدارة العباسية في بلاد الشام⁽¹³⁾.

ويبدو أن حركة القرامطة قد سلكت منهج العنف منذ بدايتها، وعاملت من يقف ضد طموحها معاملة قاسية، لم يخف مؤرخنا امتعاضه منها في مناسبات عديدة⁽¹⁴⁾، ومن ذلك ما أصاب أهل دمشق حين ضيق عليهم الحصار سنة (290هـ/903م) برعاية شيخهم المدعو "يحيى" لولا قدوم النجدة، إليهم من بغداد ومن مصر على حد سواء⁽¹⁵⁾.

لكن هذا التحالف لم يقض على القرامطة كلية رغم أنه ألحق بهم هزيمة منكرة، ولقي زعيمهم "يحيى" الملقب بـ "الشيخ" حتفه، حيث تجددت خطورة القرامطة في عهد

أخيه وخليفته "الحسين" الذي واصل دعوة الناس إلى الحركة وجمع الأتباع حتى اشتدت شوكته على حد تعبير "ابن الأثير" (16).

ولم يخف "الحسن" ادعائه الانتساب إلى العلويين وإلى الحركة الشيعية كما فعل أخوه من قبله، وبالف في ذلك إلى حد تسمية نفسه بـ "المهدي" وهو اسم له دلالات شيعية، كما له تأثير كبير على الأتباع وعلى المعادين للعباسيين.

وحسب المؤرخ "ابن الأثير" فإن "الحسين" لم يكتف بهذا فحسب، بل إنه تلقب بـ "أمير المؤمنين" إمعانا منه في منافسة العباسيين وإثارة البلبلة ضدهم، وصارت سلطته من القوة ما أجبر أمراء "دمشق" على أن يدفعوا له ضريبة سنوية اتقاء شره (17).

ويوضح "ابن الأثير" خطورة القرامطة وعنفهم تجاه سكان حواضر بلاد الشام الأمنة، حيث هاجموا "حمص" و"حماة" ومعرة النعمان، و"بعلبك" و"سلمية" ولم يرحموا أحداً من سكانها حيث لم يسلم منهم حتى النساء والصبيان (18).

ولا أدري ما إذا كان ما ورد عند "ابن الأثير" صحيحا، حيث أنّ ظاهرة المبالغة واضحة في الحديث عن العنف والإرهاب الذي ألحقه القرامطة بسكان أهل الشام وبكل مدينة يهاجمونها، حيث لم يتركوا وراءهم غير الخراب والدمار (19).

وإزاء هذا الموقف لم يبق الخليفة في بغداد مكتوف اليدين، حيث جهّز جيشا قوامه عشرة آلاف مقاتل إلا أنهم هزموا هزيمة منكرة .

ويوضح "ابن الأثير" أن الخلافة العباسية في عهد "المستكفي" (20) لم تحقق نصرا مؤزرا ضد القرامطة إلا حين اعتمدت على تحالف ثلاثي قوامه الحمدانيون من الشمال والطلونيين من الغرب والجيش العباسي من الشرق والجنوب، حيث أطبقوا على جيش القرامطة من كل الجهات وأذاقوهم مرارة الهزيمة، "والتحمت الحرب بين أصحاب الخليفة والقرامطة واشتدت وانهزم القرامطة وقتلوا كل مقتلة وأسر من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقيون في البوادي وتبعهم أصحاب الخليفة..." (21).

ويبدو أن الخليفة لم يستثمر هذا النصر ضد القرامطة فاكتمى به دون متابعة استئصال فلول المعارضة، وربما شغله ذلك ضعف إدارته المركزية التي كانت تتجاذبها

المصالح وتعرقلها المناهضات الداخلية، بدليل عودة خطورة القرامطة وتهديدهم للبلاد والعباد، حيث استطاعوا تنصيب الكمائن للجيش العباسي وتغلبوا عليه، وتمكنوا من إهتكالك الغنائم والمؤن التي كلّفت خزينة بغداد كثيراً (22).

إن منهجية "ابن الأثير" لا تسمح له بتتبع الأحداث وما أسفرت عنه من نتائج، ولعل ذلك من أهم مهام الباحث المعاصر، حيث يجد نفسه ملزماً بربط الأحداث بعضها ببعض ومحاولة جمعها من عدة روايات متفرقة بين عدة أجزاء من المصدر المعتمد.

ولعل الانتصارات غير المتوقعة التي أحرز عليها القرامطة وخوف الناس ورعبهم من معاملتهم القاسية، وبالتالي هروبيهم من مواجهتهم هي التي مكّنت هؤلاء القرامطة من مواصلة العداء للمواطنين الأبرياء، لقد أصبحت الحركة القرمطية من الجرأة والفعالية بحيث هدّدت معظم الحواضر الإسلامية في جنوبي العراق وفي بلاد الشام (23).

وأما اعتداءاتهم على قوافل الحجاج وسلب وأخذ أمتعتهم وزادهم وكل ما بحوزتهم، فقد اعتادوا على ممارستها منذ عهد مبكرة حيث تعود إلى سنة (294هـ/907م).

وبغض النظر عن صيغ المبالغة التي هيمنت على أسلوب "ابن الأثير" في الحديث عن الإرهاب الذي أحدثته هجومات حركة القرامطة ضد قوافل الحجاج، إلا أن الباحث في تاريخ هذه الحركة المعادية، يقف مشدوهاً من جسامة ما اقترفوه من سفك للدماء واعتداءات متوحشة ضد الإنسانية، ودون مبررات مقنعة.

والظاهر أن اعتداءات القرامطة ضد قوافل الحجاج وضد حواضر بلاد الشام وجنوبي العراق، أصبح السكوت عنها جريمة ولذلك جهز الخليفة العباسي الجيوش وعزم على استئصال جذور الحركة القرمطية (24).

ويبدو أن هذه المجزرة لم تقض عن القرامطة كلية بل إنها تتجدد في مكان آخر حين خُفّت عنهم ضغط الجيش العباسي، فكانت في منطقة البحرين التي كان القرامطة لا يتحركون فيها إلا قليلاً (25).

ومع بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وتحديدًا سنة (301هـ/913م) اغتيل زعيم القرامطة وبعض قادته، فخلفه ابنه "سعيد" الذي أقصاه أخوه "سليمان".

ولقد أعطى الزعيم القرمطي "سليمان" حياة جديدة لحركة القرامطة مكنتهم من تمثيل أدوار مهمة في الخليج العربي وفي بغداد أيضًا، حتى صار الخليفة العباسي وهو "المقتدر" يميل إليه ويراسله بعطف طالبا منه حسن معاملة أسرى المسلمين (26).

وقد تمكن القرامطة من مهاجمة مدينة البصرة المحمية واحتلوها بقوة ونهبوها واستباحوا أهلها مدة سبعة عشر يوما، ثم هاجموا قافلة الحجاج وهي في طريق عودتها إلى بغداد ونهبوها وشرّدوا من كان فيها، وبلغت بهم الجرأة إلى حدّ تهديدهم بغداد عاصمة الخلافة العباسية (27).

ولا يخفى "ابن الأثير" تأثره بما آلت إليه أوضاع الإدارة المركزية في بغداد، وما أصابها من وهن وبلاء، وسوء في تقدير الأمور واتخاذ المواقف المناسبة لها، ولعل هذه المرة قد أصاب مؤرخنا في محاولة تفسير الأحداث وربط بعضها ببعض، إذ كيف يعقل أن تهدد عصاية من اللصوص وهم القرامطة دولة بحجم الخلافة العباسية في ذلك الوقت؟

ولقد ربط "ابن الأثير" تطور نشاط الحركة القرمطية وتحقيق أغراضها، بفساد الإدارة المركزية في بغداد، التي كادت أن تؤدي إلى فتنة داخل العاصمة "وانقلبت بغداد واجتمع حرم المأخوذین..." (28).

لقد شعرت السلطة في بغداد بالخطر المحدق بها بسبب هجمات القرامطة المتتالية، وما أدهش الخليفة ووزرائه النجاح الكبير الذي كان القرامطة يحققونه على حساب الجيش العباسي وعلى حساب المقاومة الشعبية أيضا.

ولقد أشار "ابن الأثير" في مرات عديدة إلى تدمر السكان من الإدارة المركزية وسخطهم من سياسة التخاذل واللامبالاة تجاه هؤلاء المعادين الغلاة، معتبرين وزير الدولة في ذلك الوقت وهو "ابن الفرات" القرمطي الكبير (29).

ولقد بينت المناظرة السياسية التي جرت بين الخليفة العباسي "المقتدر بالله" ووزيره "ابن فرات" إلى الفهم العميق للأوضاع السياسية والاجتماعية التي آلت إليها الخلافة العباسية في ذلك الوقت وعلى أن السلطة المركزية فقدت هيبتها ونفوذها بسبب حالة الفوضى والفساد

وعدم الاستقرار والنزاع على السلطة بين الأمراء وقادة الجيش، والتنافس بين الوزراء حتى صارت سمة ذلك العصر⁽³⁰⁾.

وأصابع الاتهام توجه إلى الوزير "ابن الفرات" على اعتباره أحد أسباب الأزمة ويتضح ذلك حين صودرت أمواله النقدية فكانت قد تجاوزت مقدار "الف ألف دينار" مما يبين حجم الاستيلاء على المال العام في ذلك الوقت⁽³¹⁾ وهو أمر لا ينفرد به هذا الوزير على كل حال.

ويبدو أن "ابن الأثير" قد ربط ما بين فساد الإدارة المركزية والجيش في بغداد وبين الانتصارات الساحقة التي كانت الحركة القرامطية المعادية تحرز عليها في معظم مدن العراق الكبرى، حتى أشرفت على بغداد نفسها⁽³²⁾.

ولم يعد هناك مجال للنقاش بعد أن أشرف القرامطة على بغداد وكادوا يستبيحونها كما استباحوا المدن والحوضر من حولها، ولا نرى ما سبب عزوفهم عن ذلك، رغم أنهم تجاوزوها، وأخذوا يهددون المناطق الشمالية حتى الموصل.

ولم يوضح "ابن الأثير" أسباب انتشار القوات القرمطية، ولا النتائج التي ترتبت عن ذلك، حيث ما لبثوا أن تعرضوا إلى هزيمة منكرة كانت بمثابة العد التنازلي لوجودهم على أرض العراق وضمحل أمر من بالسواد منهم أي القرامطة وكفى الله الناس شرهم⁽³³⁾.

والظاهر أن هذا الانكسار هو الذي أفقد القرامطة صوابهم حين صبوا جام غضبهم على الحجاج في بيت الله الحرام سنة (317هـ/930م)، "فنهب هو وأصحابه القرامطة أموال الحجاج وقتلوه حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلع الحجر الأسود، وقلع باب البيت. وطرح القتلى في بئر زمزم بغير كفن ولا غسل. وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة..."⁽³⁴⁾.

إن مثل هذا التصرف غير المبرر يدل دلالة واضحة على سذاجة تفكير زعماء القرامطة رغم محاولة بعض المؤرخين إيجاد مبررات موضوعية لذلك منها أن هذا الاعتداء لم يكن بدوافع دينية بل بدوافع مصلحة واقتصادية فهو عمل رمزي، الهدف منه إبراز احتجاج القرامطة بكل وضوح وشدة على استغلال موسم الحج من قبل

التجار والميسورين لغرض التجارة التي كانت تدبر عليهم أرباحا طائلة، والتي كان القرامطة محرومين منها.

ويعني أن القرامطة أرادوا بهذا التصرف وهو نهب الحجر الأسود ومهاجمة قوافل الحجاج حتى تتوصل الخلافة العباسية إلى التفاهم معهم من أجل إشراكهم في أرباح تجارة موسم الحج وفي المنافع المادية الناجمة عن ذلك⁽³⁵⁾.

غير أن المؤرخ "ابن الأثير" لا يناقش هذه المسألة بالمنظور الاقتصادي ولكنه كغيره من المؤرخين المسلمين⁽³⁶⁾ ينظر إلى القضية بمنظور ديني أولا ثم سياسي ثانيا، ويفهم ذلك من خلال اعتماده على رأي "عبيد الله المهدي"⁽³⁷⁾ الذي راسل زعيم القرامطة ومرتكب هذا العمل الإجرامي، حيث جاء في مراسلته "قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد كسوة الكعبة فإنا برئ منك في الدنيا والآخرة"⁽³⁸⁾.

ويغض النظر عن الآراء والتهم التي وجهت إلى القرامطة، والتي أقل ما يقال عنها أنها حرمتهم وأبعدتهم عن كل صفة توصلهم إلى القرب من الإسلام⁽³⁹⁾، فإن الذي يستحق الذكر هو ما أورده "ابن الأثير" حين تناول موقف الخلافة العباسية من هذه القضية، وذلك على خلفية مساعي الإدارة المركزية في بغداد، حيث يشير المؤرخ "ابن الأثير" إلى مراسلة زعيم القرامطة تترجاه فيها عن الكف عن مواجهة التعرض لقوافل الحجاج، وتدعوه فيها إلى إرجاع الحجر الأسود إلى موضعه بمكة، مقابل إقرارها على ما بيده من بلاد، وتقليده بعد ذلك ما شاء من البلدان.

والظاهر أن الإدارة المركزية في بغداد كانت تجهل قوة القرامطة ونظامها، أو أنها كانت تتجاهلهم ربحا للوقت، إذ كيف يعقل التعامل مع عصابات أشرار وجماعات من اللصوص بهذا الأسلوب وبهذه السياسة القائمة على الاعتراف بالأمر الواقع، ذلك أن التفاوض لم يكن مقبولا على الأقل في تلك الفترة حيث صار القرامطة مختلفي الآراء ويحقد بعضهم على بعض⁽⁴⁰⁾.

إن "ابن الأثير" لا يقدم الصورة الواضحة عن مساعي الإدارة العباسية لعقد الصلح مع القرامطة، لكنه لا يخفي كراهية الرأي العام في بغداد وفي غيرها من الحواضر للقرامطة ولأسلوبهم في التعامل مع إخوانهم المسلمين.

ليس من منهجية "ابن الأثير" تناول الجانب العقائدي والديني للحركات المعادية للخلافة العباسية لكنه يشير إليه من حين لآخر عندما يتطلب الأمر ذلك، فالقرامطة بالنسبة إليه فرقة متطرفة وكافرة، فضلا عن كونها تجمع عصابة من الأشرار واللصوص بالفوا في نهب الأبرياء بغير حق⁽⁴¹⁾.

ولعل كراهية الرأي العام الإسلامي لأسلوب القرامطة ومنهجهم السياسي، وتفادي التعامل معهم في الحرب والمصالحة هي التي كانت وراء محاولة تصحيحهم للأخطاء ومنها إعادة الحجر الأسود⁽⁴²⁾ إلى مكانه ببيت الله الحرام بمكة دون قيد أو شرط وزعموا أنهم إنما "أخذناه بأمر وأعدناه بأمر"⁽⁴³⁾.

ومع ذلك فإن مظاهر العداء ظلت تسيطر على أرجاء العلاقات بينهم وبين ممثلي الإدارة العباسية ببغداد، رغم المواثيق وعقود الصلح والمفاهمة، بحيث تنازل الخليفة وهو "المطيع لله" إلى حد أنه سمح بذكر اسم زعيم "القرامطة" إلى جانب اسمه في الخطبة بمكة المكرمة⁽⁴⁴⁾.

إلا أن هذا التكريم لم يثن من عزيمة القرامطة ولم يلن جانبهم تجاه إخوانهم الأمنيين إذ سرعان ما تحالفوا مع الأمراء البويهيين⁽⁴⁵⁾ ممثلي الإدارة المركزية في بغداد، ضدّ الفاطميين⁽⁴⁶⁾ إذ أصبح وجودهم في بلاد الشام يقلق نفوذ القرامطة، ويقضي على مصالحهم المادية⁽⁴⁷⁾.

وفي الحقيقة فإن "ابن الأثير" لا يشير إلى قطع الفاطميين للبهات الممنوحة للقرامطة ولكنه يشير إلى قلقهم وانزعاجهم من تزايد زحف الفاطميين إلى بلاد الشام، وما سينجر عن ذلك من تهديد للامتيازات المادية والنفوذ السياسي أيضا.

وفي ظل هذا التحسس كان الاصطدام وشيكا بين القوتين القرمطية والفاطمية في بلاد الشام، ولكنني لا أدري ما أسباب استهانة القائد الفاطمي "جعفر ابن فلاح"⁽⁴⁸⁾ بتقدير قوة القرامطة، رغم أنه كان يعد من القادة المعول عليهم في مثل هذه المواقف.

لقد هاجمت قوات التحالف القرمطية البويهية سنة (360هـ/971م)، هجوما دمويا كاسحا مكنهم من القضاء على الجيش الفاطمي النامي وعلى قائده "جعفر بن فلاح" الذي قتل في المعركة، وسلبت منه كل إمكانياته⁽⁴⁹⁾.

ولا شك أن الدهشة قد أصابت من تعاطفوا مع الفاطميين وتحالفوا مع هذه القوة الجديدة التي كانت إلى هذا الوقت تضع العداء الشديد للخلافة العباسية دون غيرها من بين أهم أولوياتها، ويبدو لي أن الخفاء في مصر وممثلهم في بلاد الشام، لم يكونوا يتوقعون هجوما بهذه القوة والصلابة من طرف القرامطة إخوانهم في المذهب وشركاءهم في العداء للخلافة العباسية في بغداد.

إن هذا الانتصار الذي تحقق على أيدي القائد القرمطي "الحسين بن أحمد" قد مكّنه من متابعة هذا النجاح بمحاولة تأمين جيشه من أي ردة فعل يقوم بها الفاطميون بعد هذه الهزيمة المكرة.

وإذا كان خير الدفاع هو الهجوم، فهذا ما قام به القرامطة اتجاه الفاطميين، حيث أخذوا في تتبع قلوبهم وضرب تحصيناتهم حتى وصلوا إلى مصر وإلى حدود عين شمس تحديداً⁽⁵⁰⁾.

لم يعد هناك سكوت بعد هذا الاكتساح الذي أصاب الفاطميين في الصميم، وأصبح المغاربة بقيادة "جوهر الصقلي"⁽⁵¹⁾ وجها إلى وجه أمام قوات القرامطة التي ضمت إليها وهي في طريقها إلى مصر كل مناوئ عنيذ⁽⁵²⁾.

وحسب "ابن الأثير" فإن الحرب كانت سجالات بين الطرفين وكانت الغلبة في البداية لصالح القرامطة الذين "حصروا المغاربة حصرا شديدا" إلا أن الفاطميين استطاعوا أن يفتحوا ثغرة في صفوف الجيش القرمطي، نتج عنها كسر ميعنته، فتمكنوا بعد ذلك من تحقيق النصر، ضد القرامطة الذين أعادوا الكر إلى بلاد الشام يجرّون ذبول الهزيمة على أيدي المغاربة⁽⁵³⁾.

ويبدو أن هذه الهزيمة لم تكن ثقيلة على الجيش القرمطي لأنه استطاع وهو في طريق العودة أن ينال بعض المكاسب على حساب الفاطميين، لكن ذلك منع القوتين من إيجاد أية علاقة ودية بينهما، مما مكّن العباسيين من الإستفادة ببعض الهدوء ولو كان ذلك نسبيا، وغير مفيد في آن واحد.

ويتضح ذلك في التقارب غير المحمود الذي كان يقع من حين لآخر بين القرامطة وأمراء "بني بويه" المتغلبين على الخلافة العباسية في بغداد، هذا التقارب الذي لم تتوضح أسبابه للمؤرخ "ابن الأثير" إلا في حدود ضيقة، منها خشية ممثلي السلطة العباسية في دمشق وتخوفهم من قوة الفاطميين بقيادة

"جوهر الصقلي" الذي خشي بدوره أن يقع بين قوتين متحالفتين، فضل الانسحاب من دمشق، ريثما تحين الفرصة لمواجهة هذا التحالف القوي⁽⁵⁴⁾.

لقد كان "جوهر" مصيبا فيما ذهب إليه، إذ لولا استعاضته بمدد من مصر لسحق التحالف القرمطي البويهى جيشه، سحقا لا نهوض بعده.

ومع أن النصر كان لصالح الفاطميين إلا أن المؤرخ "ابن الأثير" يوضح على غير العادة منهج استخدام الفاطميين للأموال من أجل شراء ذمم القادة حتى ولو كانوا مهزومين⁽⁵⁵⁾.

ونفس السياسة سلكها أمراء بغداد لتفادي الوقوع في حبال شرهم، ويبدو أن سياسة بذل الأموال لم تثن القرامطة عن محاولة الضغط على بغداد والتدخل في شؤون أمرائها، ويتضح من خلال روايات "ابن الأثير" أن الأمراء البويهيين قد صبروا على ضغوطات القرامطة، وبدلوا لهم العطاء والأموال تجنباً لشرهم، لكنهم لم يجدوا لهم عنذرا حين أخذوا يتدخلون في النزاعات الداخلية القائمة بين الأمراء البويهيين على السلطة في ذلك الوقت⁽⁵⁶⁾.

واتضح غضب البويهيين، حين وجهوا إلى القرامطة ضربة قوية، سنة 375 هـ/985م كانت إحدى الأسباب التي قضت عليهم نهائيا، حيث انسحبوا من بادية الشام ومن مدن العراق كافة، واستقروا في البحرين دون القيام بتمردات تذكر، "وزال من حينئذ ناموسهم" على حد تعبير المؤرخ "ابن الأثير"⁽⁵⁷⁾.

الهوامش:

1- ميمون القداح، شخصية مهمة في نظر الشيعة، كان محدثا، وكان معاصرا وصاحباً لـ "جعفر الصادق" لذلك فهو ثقة في نظرهم، وصاحب تألف وله اجتهادات يحترمها الشيعة، ويفضلونها، بينما المصادر السنية تخالف ذلك ومنها المؤرخ "ابن الأثير" حيث لا يذكره باحترام. عن هذا الموضوع، انظر، البحث القيم الذي كتبه، برنارد لويس، أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص 99 وما بعدها.

2- عبد الله بن ميمون القداح، وحسب مصادر الشيعة فإن الاحترام الممنوح لـ "ميمون" تمنحه أيضا لابنته "عبد الله" فهو عالم ومجتهد ومعاصر للإمام جعفر الصادق في نظرهم، وراوي عنه، لذلك يحظى هو الآخر بالاحترام والثقة لديهم، وتقف المصادر السنية منه موقفا سلبيا

- مثلاً وقفت ضد أبيه "ميمون"، وذلك بسبب التأثير المذهبي على المؤرخين، ومنهم "ابن الأثير"،
برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، ص 100، ماسنيون، مقالة عن القرامطة، في دائرة المعارف
الإسلامية.
- 3- الحسن العسكري، وهو أبو محمد العلوي العسكري، أحد الأئمة الاثني عشر على
مذهب الأمامية، وهو والد "محمد" الذي يعتقد أنه الإمام المنتظر. عنه أنظر، ابن الأثير، الكامل،
ج5، ص374.
- 4- ابن الأثير، الكامل، ج5، ص373.
- 5- ابن الأثير، الكامل، ج5، ص374.
- 6- افتتح ابن الأثير حديثه عن هذه الحركة بمنهج الموضوعات حيث حدد لحركة
القرامطة عنواناً خاصاً هو: "ذكر ابتداء أمر القرامطة" مما يسهل على الباحث أخذ صورة
متكاملة نسبياً عن بدا نشاط هذه الحركة. عن هذا الموضوع راجع: ابن الأثير، الكامل، ج6،
ص69.
- 7- حول هذه المواضيع ارجع إلى، ابن الأثير، الكامل، ج6، ص70.
- 8- عن هذه الحركة، راجع، الفصل الخاص بها في كتابي عن ابن الأثير.
- 9- الخليفة المعتضد، هو المعتضد بالله أحمد بن الموفق حكم فيما بين سنتي 279هـ
و289هـ/892م و902م، عن سياسته ومواقفه تجاه الأحداث راجع، السيوطي، تاريخ الخلفاء،
ص301، 295.
- 10- حول تفاصيل هذا الموضوع راجع، ابن الأثير، الكامل، ج6، ص94 - 95.
- 11- تجد تفاصيل الأحداث عند الطبري، تاريخ الأمم، ج5، ص344، ونقل عنه ابن
الأثير، الكامل، ج6، ص94 - 95.
- 12- هذه الادعاءات وغيرها، كثيراً ما كانت قوى المعارضة تدّعيها لكسب الشرعية
لدى الرأي العام، وتبرير نضالها ضد السلطة الحاكمة. حول هذا الموضوع راجع، الطبري، تاريخ
الأمم، ج5، ص345 - 346، والبحث القيم الذي قام به الدكتور محمود إسماعيل، الحركات
السرية في الإسلام، ص109 وما بعدها.
- 13- قارن، الطبري، تاريخ الأمم، ج5، ص372 - 373، ابن الأثير، الكامل، ج6، ص
99 وما بعدها، البحث الجاد الذي قدمه الدكتور "فاروق عمر"، في كتابه اتهام وهو "التاريخ
الإسلامي وفكر القرن العشرين"، ص261 - 284.
- 14- انظر، على سبيل المثال، ابن الأثير، الكامل، ج6، ص99 - 100.
- 15- قارن، الطبري، تاريخ الأمم، ج5، ص380 وما بعدها، ب، ابن الأثير، الكامل، ج6،
ص104.
- 16- ابن الأثير، الكامل، ج6، ص104.

- 17- استرسل "ابن الأثير" في الحديث عن هذا الموضوع لأهميته بالغة التأثير في نفوس الناس في ذلك الوقت ووضح بأن الزعيم القرمطي فضلا عن إطلاق لقب "أمير المؤمنين" على نفسه، فإنه تسمى أيضا بـ "أبي العباس" وأظهر شامة في وجهه زعم أنها آيته، وكل هذه القضايا هي رموز لها تأثيرها على الأتباع في ذلك الوقت، للمزيد راجع ابن الأثير، الكامل، ج.6، ص. 107، 105.
- 18- حول الأعمال المنكرة التي قامت بها عناصر القرامطة للمقارنة انظر، الطبري، تاريخ الأمم، ج.5، ص.384، ومحمود إسماعيل، الحركات السرية، ص 113 وما بعدها.
- 19- علق ابن الأثير عن هذا الموضوع قائلا، "وقتل النساء والصبيان ثم سار إلى بعلبك وقتل عامة أهلها ولم يبق منهم إلا اليسير ... وسار فيما حولها من القرى يسبي ويقتل ويخيف السبيل ..." ابن الأثير، ج.6، ص.105.
- 20- الخليفة المكتفي، "الخليفة السابع عشر من تسلسل الخلفاء العباسيين حكم فيما بين سنتي 289هـ و295هـ / 902م و908م". عن سياسته وأهم الأحداث في عصره راجع، الطبري، تاريخ الأمم، ج.5، ص.376 وما بعدها. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 301 - 303.
- 21- تجد تفاصيل هذا الموضوع عند الطبري، تاريخ الأمم، ج.5، ص.386، وقارن ذلك، ابن الأثير، الكامل، ج.6، ص 108 - 109، وب، فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، ص 380 وما بعدها.
- 22- وكذلك فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، ج.6، ص.114.
- 23- تجد تفاصيل الأحداث عند ابن الأثير، الكامل، ج.6، ص.114 - 115.
- 24- تحدث "ابن الأثير"، بالتفاصيل عن مظاهر الاقتتال وبيادر الانتقام، انظر، ذلك عند ابن الأثير، الكامل، ج.6، ص.116.
- 25- لا يوضح المؤرخ "ابن الأثير" أسباب ذلك.
- بينما يذكر فاروق عمر التاريخ الإسلامي ص 272 أن ذلك كان مقابل أموال وهبات يستلمونها من السلطة المركزية ببغداد قارن، الطبري، تاريخ الأمم، ج.5، ص 413، ب ابن الأثير، الكامل، ج.6، ص.147.
- 26- ابن الأثير، الكامل، ج.6، ص.147.
- 27- للمزيد حول ضغوطات حركة القرامطة قارن، ابن الأثير، الكامل، ج.6، ص.177، ب الطبري، تاريخ الأمم، ج.5، ص.394، وب، محمود إسماعيل، الحركات السرية، ص 114.
- 28- ابن الأثير، الكامل، ج.6، ص.148.
- 29- حول مسألة التذمر الشعبي من الإدارة المركزية قارن، الطبري، تاريخ الأمم، ج.5، ص.390، ب محمود إسماعيل، الحركات، ص 114، وب فارق عمر، التاريخ الإسلامي، ص 273 - 274.

- 30- قارن فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، ص 273، ب محمود إسماعيل، الحركات، ص 116.
- 31- قارن، ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 178، ب فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، ص 273.
- 32- قال ابن الأثير معلقا عنها ذلك، "وورد الخبر إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفا شديدا وعزموا على الهرب.. ودخل المنتهزمون بغداد أكثرهم رجالة حفاة عراة.."، ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 187.
- 33- ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 194.
- 34- ناقش الدكتور محمود إسماعيل هذه القضية واهتدى إلى كون هؤلاء المتمردين من القرامطة قد لجئوا إلى هذا الموقف للضغط على الحكام ماديا حتى يتسنى لهم مشاركتهم في الأرباح التي كانت تدر على الحكام المحتكرين لها أرباحا طائلة.
- قارن، ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 203 - 204، محمود إسماعيل، الحركات السرية، ص 114 وما بعدها، فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، ص 280.
- 35- قارن، فاروق عمر، التاريخ السياسي، ص 272 - 273، محمود إسماعيل، الحركات السرية، ص 116 وما بعدها، محمد عبد الحي شعبان، الدولة العباسية، ص 156 وما بعدها.
- 36- غالبا ما يرشح المؤرخون المسلمون الأسباب الفردية الشخصية والأسباب الدينية، ثم الطموحات السياسية كأسباب للحركات المناوئة والثورات ضد الأنظمة القائمة، ونادرا ما يشاركون إلى الأسباب الاقتصادية وهي التي ترد باحتشام وبين الأسطر فقط، ولعل أبرز مثال على ذلك ما كتبه كل من المؤرخ الطبري والمؤرخ ابن الأثير وحتى المؤرخ ابن خلدون في موسوعاتهم التاريخية.
- 37- حول شخصية "عبيد الله المهدي" انظر، الحديث المخصص له في كتابي عن ابن الأثير.
- 38- ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 204.
- 39- اتهم القرامطة اتهامات كثيرة أغلبها تكفرهم وتلصق بهم تهمة "الزندقة" والمروق عن الدين وهي تهم لها صداها المؤثر في الرأي العام الإسلامي ماضيا وحاضرا عن هذا الموضوع قارن، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 2، ص 74، محمود إسماعيل، الحركات السرية، ص 111 وما بعدها، فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، ص 278 وما بعدها.
- 40- عن أوضاع القرامطة في هذه الفترة قارن، الطبري، تاريخ الأمم، ج 5، ص 475 وما بعدها، ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 268 وكان ذلك في حدود سنة 322هـ/934م.
- 41- انظر، ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 203 - 204.

- 42- كانوا قد أخذوه حين أغاروا على سكان مكة الأمنيين في حدود سنة 317هـ/929م، ولم يرجعوه إلى سنة 334هـ/946م، أي أنهم احتجزوه مدة 22 سنة وهي فترة غير قصيرة على كل حال، ولها تأثيرها على الرأي العام الإسلامي، في كل موسم حج انظر، أبو الفدا، المختصر، ج2، ص74.
- 43- ابن الأثير، الكامل ص 235.
- 44- ابن الأثير، الكامل، ج7، ص40.
- 45- البويهيون، أسرة متغلبة، فارسية الأصل تمكنت من تكوين "دولة" على حساب الخلافة العباسية وقد خصصت لها حديثا مستقلا في الفصل الثامن من كتابي عن ابن الأثير.
- 46- الفاطميون، هو نسبة إلى "فاطمة الزهراء" بنت الرسول ﷺ نجحوا في تكوين دولة وخلافة لهم في بلاد المغرب أولا ثم في مصر ثانيا، وتربطهم علاقة بـ "القرامطة" علاقة نسب وعلاقة عداة تجاه النظام الحاكم وهو "البيت العباسي" وقد أشرت إلى موضوع الفاطميين في أماكن كثيرة من هذا البحث منها حين تحدثت عن تيار الشيعة ومعاداته للخلافة العباسية ومنها حين تحدثت عن مراحل تكوين الدولة الفاطمية في الفصل السابع من كتابي عن ابن الأثير.
- 47- كان القرامطة يتقاضون من الإخشيديين حكام مصر مبلغا ماليا قدره 300 ألف دينار سنويا مقابل سلامة القوافل التجارية المارة ما بين بلاد الشام والحجاز عن هذا الموضوع، قارن، ابن الأثير، الكامل، ج7، ص42، فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، ص275.
- 48- جعفر بن فلاح، أحد القادة البارزين في صفوف الجيش الفاطمي خاصة في حملة الفاطمية ضد مصر، حيث برز كقائد كتامي رفيع المستوى في خدمة الدولة الفاطمية، وخاصة أثناء توسعاتها في بلاد المشرق ولعل أحسن من كتب عن هذا الموضوع فيما وصل إلي لحد الآن هو الدكتور "موسى لقبال" في كتابه "دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية"، ص485 - 491.
- 49- حول تفاصيل وأحداث هذا الصراع قارن، ابن الأثير، الكامل، ج7، ص42، أبو الفدا، المختصر، ج2، ص111 - 112، موسى لقبال، دور الكتامة، ص491.
- 50- قارن، ابن الأثير، الكامل، ج7، ص42 - 43، أبو الفدا، المختصر، ج2، ص111 - 112.
- 51- جوهر الصقلي، هو أحد أبرز القادة العسكريين والإداريين في الدولة الفاطمية حيث مثل أدوارا مهمة في مراحل عديدة من التاريخ الإسلامي مغربا ومشرقا عن ذلك قارن، ابن الأثير، ج7، ص43، موسى لقبال، دور كتامة، ص466 وما بعدها.
- 52- عبّر ابن الأثير عن ذلك بقوله: "فلما وصلوا إلى مصر اجتمع معهم خلق كثير من العرب، والجنود والإخشيدية والكافورية فاجتمعوا بعين شمس عند مصر...". ابن الأثير، الكامل، ج7، ص42.

- 53- تحدث ابن الأثير بوضوح عن دور المغاربة في كسر شوكة القرامطة في بلاد المشرق، وخاصة تحت قيادة "جوهر الصقلي" عن ذلك راجع، ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 54 وما بعدها. ولقد أشار إلى ذلك بإسهاب الدكتور "موسى لقبال" في كتاب "دور كتامة"، انظر، ص 331 وما بعدها.
- 54- حول تفاصيل هذه الأحداث. راجع، ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 63.
- 55- انظر، ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 63.
- 56- راجع، ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 122 - 126.
- 57- يشير ابن الأثير أن القرامطة أخذوا بعد هذا يلقون الضربات الموجعة، ويتجرعون مرارة الهزائم في مناسبات عديدة حتى زال خطرهم نهائيا بعد سنة 378هـ/988م. قارن، ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 126، موسى لقبال، دور كتامة، ص 584 وما بعدها.
- 58- على مدى فترة حركة الزنج المناوئة للخلافة العباسية كان ابن الأثير يخصص لها عنوانا يميزها عن باقي الأحداث وهو "ذكر أخبار الزنج" وذلك نظرا لجسامة الوقائع التي أحدثتها وخطورتها على الصعيد السياسي والاجتماعي.